ليلة ديك الجنّ الأخيرة

شوقي بزيع

مطرٌ يهمي على الصّحراء أم تخدعني
عيناي،
قلبي مرجلٌ يغلي،
وفي أعضائيَ الهوجاءِ
تصرخ ريحٌ رخوةٌ
والأرضُ بستاني البعيدُ
تتراءى حمصُ لي
مثل تآليلَ على الرّمل
كأنّي نجمُها الضّائع في الأيّام
أو ذئبُ صحاريها الوحيدُ
مطرٌ يهمي على الصحراء
أم ليلٌ بآلافِ السّكاكينِ يغطّي عورةَ
الكثبان،
والغيمُ الّذي يطحنُ أحشاء السّماواتِ
عقابٌ.. أم بريدُ
صائحاً مثل غرابينِ على قبرٍ
أريد الماء،
لكنّي أرى الماء دماً
يقطرُ من جوف النّواعير،
و«وردٌ» غيمةٌ بيضاءُ
يعوي قمرٌ أحمرُ في أعشاب نهديها
وتهتاجُ مناقيرُ دمٍ كاسرةٌ
في ثغرها النّائي
وتُجتاحُ ورودُ
عائداً نحو ثرى حمصٍ
على رأس جيوشٍ من كوابيسي،
وهذا القفَرُ مرآةٌ
ينزُّ الشبقُ الفاحِم من أظلافها،
الصّحراءُ قطعانٌ من الأشباحِ
والرّملُ جنودُ
لا يدٌ تُنشبني في عنقِ الرّيحِ
ولا جدرانَ تؤويني
وهذي الأرضُ لا تنشقُّ
إلّا عن ذبابٍ ميِّتٍ في بِرَكِ الوحشةِ،
صِدْني أيّها المسُّ
الّذي يفتضُّ كالسّيفِ غطاء العقلِ
كيما أترامى في دياجيك
كنسرٍ لا يعودُ
أيّها الكوكب فوق السّهلِ
يا شِقّي الإلهيَّ الّذي يصرخُ
في بَرِّيَّةِ الحمّى
أَبِنْ لي وجهكَ الآخرَ
كي أبصر ما تضمرُهُ الأعضاءُ من
وسْوسةٍ
والشّهدُ من سُمٍّ،
وما يجعل من أفئدةِ العشّاقِ
وكْراً للشّياطين،
أَنِرْ لي نطفةَ الحقدِ
الّتي تكبر في الأرحام
كي يمتصّها الشرُّ الولَيدُ
كنبيٍّ ضائعٍ في الرّيح أحتزُّ وريد
الغيم
بحثاً عن دم
يطحنُ أشباحي بفكّيْهِ
وعن هاويةٍ تفصل بين اللهِ والشّيطانِ
في رأسي،
أُطيلُ الأرضَ ما يكفي
لأن أصرخَ في أرجائها: يا «وَرْدُ»

فيرتدُّ إليَّ الصّوتُ
نصلاً يمخرُ اللّحمَ،
قصاصاتِ نساءٍ عارياتٍ
يتدلّين، بلا أجراس، من أثدائهنَّ
و«وردٌ» قطعةٌ من ندمٍ أسودَ
يمحوها رذاذُ الهذيانِ
مَطَرٌ يهمي على الصّحراءِ
أم سهما جنوني يبكياني
لم يَعُدْ لي من مراياي سوى ظلّي
ومن ذاكرتي
إلّا سريرٌ فارغٌ منّي
وها إنّي أعودُ الآن مثل الملكِ الخاسرِ،
تاجي شهوةُ القتْلِ الّتي تلمع كالنهدِ
ويأسي صولجاني
هي ذي حمصُ الّتي أحببتُ
تغفو تحت جفنِ العينِ كالدّمعةِ،
ثدياها العميقانِ
يناماِن على مهلٍ كطفلينِ يتيمينِ،
وخدّاها مضاءانِ بماء النّهر،
فيما بذرها الحامضُ مكسورٌ إلى نصفينِ،
حمصُ النّجمةُ الخضراءُ في مخدعها،
أرملةُ العاصي
وفأسُ المطر الصّلْبُ،
النّواقيسُ
وأوجاعُ الأغاني
كلُّ ما ضاع من العمرِ،
بحيراتُ النّحيب المستمرُّ،
الشّامةُ العذراءُ للرّوح،
تهبُّ الآن من أقبيةِ الماضي...
ولكنْ، أين «وردٌ»؟

أين بابُ البيت؟
أين الأرض؟
لا شيءَ سوى الأصداءِ
والأيدي الّتي تنهضُ كالصبَّارِ
من قلبِ الدّخانِ
أتوارى في وجوهِ النّاس كالمخبر،
أبحثُ عن عينيَّ في أحداقهمْ،
لا أحدٌ يعرف من كنتُ
ومن أقصدُ،
أحفرُ في الأمكنةِ الصمَّاء كالخلدِ،
ولكنْ لا أرى «ورداً»
ولا حمصُ تراني
من أنا؟
لا أحدٌ يسمعني في ذلك القفر،
كأن لا أرضَ لي،
لا امرأةٌ...
كلُّ أنثى امرأتي،
وأنا في كلِّ أرضٍ ناشبٌ كالفطرِ،
أو كالجنِّ،
أو كالسُمِّ
في كلِّ زمانِ
أنا ديكُ الشُّبُهاتِ المتخفِّي في الشّرايين،
أنا الثّالثُ في كلِّ سريرٍ،
وفي كلِّ عناقٍ بين زوجينِ
أنا الطَّعنةُ في الظَّهر،
وفي غرف النّوم أنا لهبُ الغيْرةِ،
ريشي جمرةُ الخوفِ
الّتي يضرمُها الشكُّ
وأعضائي وقودُ
وأنا الواقفُ بين الحبِّ والموتِ
كسيَّافٍ على فوهةِ الأسرار،
مأذونُ الخيانات،

الفراشُ الظلُّ،
ضِلّيلُ النّساءِ المستَفَزُّ،
الضَّفَّةُ الصّفراءُ للشّهوةِ
والضدُّ اللّدودُ
وأنا فزَّاعة العشَّاق،
فأسُ الجسدين المتراخي،
أتحرَّى في لقاءِ العين بالعينِ عن المخرزِ،
لا يلفتُني في العشقِ
إلّا ما يلي القُبلةَ من شوكٍ،
ولا يظهرُ لي من جسدِ المرأةِ
إلّا نصفُهُ الخائنُ،
كلُّ امرأةٍ «وردٌ» إلى أن يَثْبُتَ العكس،
إذنْ،
فَلْتَرِثِ اللّعنةُ لا الحبُّ بهاءَ الأرض،
ولينتصبِ الخنجرُ لا الوردةُ
بين الفخذ والفخذِ،
لِيحيَ الوحشُ لا الإنسان في صدريَ،
مرحى أيّها الذّئبُ السّماويُّ الشّريدُ
وليكنْ أن تُفتح الآن
مصاريعُ الدّم الأسودِ في عينيَّ،
أن تنغرز الغَيْرةُ كالأنيابِ
في أوردتي الثّكلى،
وأن يَنْصَبَّ في الأحشاء
قطرانُ العذاباتِ الّتي يذرفها
قلبي الطّريدُ
وليكنْ أن أُغمد السكّين في عنقي
وأطوي، دونما «وردٍ»،
جناحيَّ الذّبيحينِ،
أنا القاتلُ والمقتولُ والطعنة
والدّيكُ الشّهيدُ

بيروت